٢

التحكيم

لا هُمَ قد لبَّيتُ مَنْ دَعانى وجئتُ سَعى المُسرِع العَجلان

ثَبْتَ اليقين صادقَ الإيمان يتبعنى الحارثُ غيرَ وان

جذلانَ لم يحفل بما يُعاني لا هُمَّ فلتصدُق لنا الأمانى

ما لى بما لم ترضه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بها الرجز عريضًا يملأ الفضاء من حوله، تقيًا يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء. وكان كل شىء مستقرًا لا يضطرب فيه إلا هذا الصوت العريض النقى، وإلا هذه الذراع التى ترتفع بالمعول قوية، ثم تهوى به مُحْتفرة، ثم تدعه إلى المسحاة فتغرف بها التراب فى المِكتل، وإلا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه، ويسمع صوته ويردُّ عليه رجعَ هذا الصوت كلما وصل فى الدعاء إلى هذا البيت:

لا هُمَّ فلتصدُق لنا الأمانى

حتى إذا امتلأ المِكتل حمله بذراعيه الضعيفتين، وأسرع فى شىء من الجهد إلى خارج المسجد، فألقى ما فيه ثم عاد، وأبوه يرفع المعول فى الجو ويهبط إلى الأرض، ويملأ فضاء البيت بصوته العريض، والعرق يتصبَّب على جبينه، ولكنه لا يحسُّ جهدًا ولا يجد إعياء. وكانت الشمس قد ألقت على الأرض رداءً من النور نقيًا، ولكنه ثقيل هَمد له كلُّ شىء، وأوى له الناس إلى بيوتهم يَقبلون، وانقطعت له الحركة، وخفتت الأصوات، إلا هذه الجنادب التى يروقها وَهج الشمس، ويُسكرها لهب القيظ، فتصدح بالغناء إذا سكت كل شىء. وقد أخذ الغلام يحس لذع الجوع وحر الظمأ، ولكنه لا يقول شيئًا، بل لا يكاد يفكر فى شىء، إنما سمعه وقلبه لصوت أبيه، وعيناه للمكتل والتراب، ونشاطه لإفراغ المكتل إذا امتلأت. وهمًا فى ذلك، إذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء، يحمل إلى الرجل والغلام شيئًا من طعام وشراب، حتى إذا انتهى إليهما وضع ثقله وقال: مولاى، هذا غذاؤك وغذاء الصبى، قد أعدته سيدتى العامرية، هيأته بيدها، وهى تعزم عليك لتصيبنّ منه، ولترفقن بنفسك ولترفّهن على هذا الصبى الحدث! لقد قال الناس جميعًا،

وهدأ كل شيء لهذا الوهج الذى يصهر الأبدان ويحرق الجلود، وأنت فيما أنت فيه من جدٍّ يُضْنى، وجهد يُهلك، لا تقيل ولا تستريح، ولا تُريح هذا الطفل الذى لم يتعود الجهد والعناء، بعض هذا يبلغك ما تريد. ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام إلا بأذن مغرضة، ولم يستقبله إلا بوجه مُشيح، إنما هو ماض فى رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعًا فى الجو وهبوطًا إلى الأرض، والصبى يتبعه بسمعه وقلبه، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم إلى هذه السَّلَّة وما فيها، وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه. وانصرف إلى ما فى هذه السلة يعد يده ويحصيه ويتمثله: إن فيها لشواءً غريضًا وإن فيها للبنًا يمازجه عسل هُذَيل الذى حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام، وإن فيها لماء عذبًا. ومن يدري! لعل سمراء قد نقعت فيه شيئًا من زبيب الطائف؛ فإنها تجيد ذلك وتحسنه. وعبد المطلب ماض فى رجزه وفى حركة يديه بالمعول والمسحاة، وقد امتلأ المكتل، فيهم الصبى أن يحمله ليلقى ما فيه. ويدنو الغلام يريد أن يعينه فى ذلك، ولكن عبد المطلب ينهره نهرًا عنيفًا: "إليك يا غلام! فما لهذا الأمر إلا عبد المطلب وابنه".

ويمضى الصبى بالمكتل ويعود، ولكن الرجز قد انقطع، وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعودًا وهبوطًا، وإنما هو مُطرق إلى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر، ثم يرفع بصره إلى السماء فيطيل رفعه، ثم يدير عينيه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئًا أو أن يلتمس أحدًا، ثم يدعو ابنه فى صوت ملؤه الدَّهَش والحيرة والرضا والإشفاق: هلمَّ يا حارث انظر! أترى ماذا؟.

- كلا يا أبت!، وإنما أرى ذهبًا وسلاحًا.
- ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح، وإنما وُعدت بالماء لسقى الحجيج. إن وراء هذا الأمر لسرًا! ولكن هلمَّ يا بُنى، فما أرى إلا أن الظمأ والجوع قد أجهداك.

وأقبل الرجل وابنه على السلة فأصابا مما فيها ذاهلين واجَمْين، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعمًا أو حسًا له ذوقًا، يصرفهما عنه هذا الذهب الذى يتوهج فى الحفرة، وهذا السلاح الذى يظهر أنه كثير ثقيل. حتى إذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب إلى الحفرة فيستخرج ما فيها، فإذا غزالان من ذهب تقى ثقيل، وإذا سيوف ودروع فيكبَّر، ويرفع صوته بالتكبير ويسرع إليه أفراد قليلون كانوا قد بدءوا إلى المسجد، كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيظ، فإذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا، ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد، وإذا شباب قريش وشيوخها يُقبلون سراعًا مزدحمين، يُسرع ببعضهم حب الاستطلاع، ويسرع ببعضهم الآخر الطمع فى الغنيمة، ويسرع بفريق منهم باعث دينى غامض، فيه خوف وفيه رجاء وفيه إكبار للآلهة، وتوقع للمعجزة الخارقة حتى إذا توافوا جميعًا واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنًا، وعرفوا حقيقة هذا الكنز، وقوَّموا ذهبه الخالص، وصناعته البارعة،وما فيه من سيوف ودروع، أداروا أمرهم

بينهم: لمن يكون الكنز؟ قال هشام بن المغيرة: إنما هو لقريش! فقد وُجد فى المسجد، وكل ما وُجد داخل الحرم فى أرض عامة فهو لقريش. وقال حرب بن أمية: إنما هو لبنى عبد مناف خاصة، فهم الذين احتقروا وهم الين ظفروا، وما ينبغى لقريش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة. وتنازع القوم وطال النزاع، واختصم القوم واشتدت الخصومة، وعبد المطلب صامت مطرق، لا ينطق بكلمة ولا يأتى بحركة. هنالك صاح به حرب: مالك لا تقول وأنت الذى وجد الكنز، وأنت أحقنا بأن ترى رأيك فيه؟! قال عبد المطلب ى هدوء وأناة: ما ينبغى أن يكون الكنز لأحد حتى نستشير الآلهة؛ فما حفرت ولا ظفرت إلا بأمر خفى، وما أرى أن للآلهة فى ذلك إرادة وقدرًا لا نبلغهما حتى نسأل الكهان. هنالك وجمت قريش وغضب بنو عبد مناف، وأنكروا جميعًا فى أنفسهم أن يُشرك عبد المطلب معهم الآلهة فى هذا الكنز الدفين. ولكنهم لم يقولوا شيئًا، وما كان لهم أن يقولوا شيئًا. ومن الذى يستطيع أن يرد قضاء الآلهة؟ حمل الكنز إذًا إلى الكعبة. وأقبل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح. وها هو ذا يضرب بقداحه، ثم يضرب، ثم يضرب بين قريش والكعبة، فتخرج القداح للكعبة ثلاثًا، فيصيح عبد المطلب: لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد! تفرقوا يا معشر قريش؛ تفرقوا يا بنى عبد مناف! فليس لأحد منكم فى هذا الكنز نصيب! أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة. وأما هذه السيوف فستُعلَّق عليها. وأما هذه الدروع فستُدّخر فى خزائنها. ثم التفت إلى ابنه وقال: هلم يا حارث، اتبعنى لنمضى فيما كنا فيه، وتفرقت قريش وفى صدورها غل وحنق ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية، وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب، ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضًا. وأصبح الناس ذات يوم وإذا بالكعبة قد جُردت مما عُلق عليها من ذهب وسلاح.

وراح عبد المطلب مع المساء إلى أهله محزونًا مكدودًا، راضيًا مع ذلك، لم يفارق قلبه الأمل. فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبتسم له، ولكنها لم تُعرض عنه ولم تتجهم له. فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت. ولما ألح فى السؤال، قالت: وبمَ تريد أن أبتهج؟ ولم تريد أن أبتسم؟ لقد علمت منذ زَفنى أبى إليك أنى قد تزوجت رجلاً لا كالرجال. لقد أحببتك ولكنى أنكرتك. لقد أملت فيك ويئست منك، ثم عاد إلى الأمل أولّ أمس، ثم ها أنت ذا تردَّ إلى اليأس مظلمًا حالكًا قبيح الوجه، بشع المنظر كأنه الغول. ماذا؟ يلمُ بك الطائف أربع ليال، يُهيب بك ويلحُ عليك، رمزًا حينًا ومصرحًا حينًا ومصرًا دائمًا، حتى إذا أذعنت لأمره وانتهيت إلى ما سيق إليك من خير وادَّخر لك فى الأرض من غنى. زهدت فيه وانصرفت عنه، وأشفقت أن تُسلمه إلى قريش أو إلى بنى عبد مناف، فيقال: ألقى بيده ونزل عن غنيمته، فصرفت ذلك عنك وعنهم إلى

هذه البنية[1] تحلَّيها بالذهب وتُعِزّها بالسلاح! وماذا تصنع الأحجار القائمة بذهبك وسلاحك!! لله أنتم يا معشر قريش! إنكم لتُكبرون من هذا البناء المنصوب ما لا نكبر نحن فى البادية. ولولا حاجاتنا ومنافعنا لما هبطنا بطاحكم حاجين ولا مُعتمرين، ولكنكم قوم ضعاف تُكبرون ما لا يكبر، ويغركم أن أفئدة الناس تهوى إليكم، تحسبونهم يُقبلون إليكم بالدِّين وينصرفون عنكم بالطاعة، وإنما يُقبلون عليكم بما عندهم من عروض، وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق. هلا طاولت قريشًا وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح إلى! لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبى الذى تعنَّيه وتضنيه منذ ألمَّ بك ذلك الطائف. هلا تريثت أو اصطنعت الأناة! إذًا لاحتويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالاً، ولما استطاع بنو عبد شمس أن يكاثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم والدنانير، إذًا لأقبلت إليك بنو عامر بقوتها وبأسها فأغرتك ومنعتك من قريش ولكنك أشفقت وملأ قلبك الفرق، وعبثت بنفسك بقية من كبرياء، فأقفرت نفسك، وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بنى حرب ثروة ومالاً. قال عبد المطلب محزونًا هوَّنى عليك يا سمراء، وأقلِّى اللوم، فما أرى أنك تفهمين مما ترين شيئًا. لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال. وما أحبُّ لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال. وما أرضى وأن نَسَلتك أشراف بنى عامر أن تغضى من أمر قريش. إن فيكم أهل البادية لطباعًا غلاظًا ونفوسًا يملؤها الطمع. أنتم لا تحسبون الدين ولا تقدرون الغيب، ولا تؤمنون إلا بما ترون، ولا تخافون إلا القوة الظاهرة. لقد كنت أحسب أن مُقامك الطويل بمكة قد غير نفسك بعض الشىء، فإذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد إلى هذه البطحاء، هوَّنى عليك ولا تشغلى نفسك بما لست منه فى قليل ولا كثير. لقد أمرنى الطائف أن أحتفر، ووعدنى أن أجد الماء لأسقى الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بنى عامر؛ فليس هذا الذهب لى ولا لقريش وإنما هو مخبوء لأمرٍ يُراد. وإنى لمن قوم لا يحبون الغضب ولا يستأثرون بما ليس لهم، ولا يمنعون الحقوق. فإن تكن غلظة الأعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقتك فزُمَّى رحالك غدًا وألمى بأهلك! فهم أحق بك وأدنى إليك. قال ذلك ونهض غاضبًا، وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظًا لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدّرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام.

وارتفع صوت عبد المطلب التكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله، حتى اضطربت له مجالس قريش فى فناء البيت، فخف الناس إليه وهم يقولون: ما نرى ابن هاشم هذا إلا مطروقًا يلقى من الجن شططًا، ويريد أن نلقى منه شططًا. أقبلوا إليه سراعًا يزدحمون وقد

---

(١) البنية : الكعبة.

آلى أشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز وعثر على غنيمة، ليغُبُنَّه عليها، وَلَيُعْطُنَّه منها نصيب رجل من قريش. وانتهوا إليه وهو يكبر ويصيح: هذا طَوى إسماعيل! هذه بئر زمزم! هذه سقاية الحاج! لقد صدق الوعد وتحقق الأمل.

فنظروا فإذا عبد المطلب قد وجد الماء، وإذا هو يستقى يشرب ويسقى ابنه، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقى الأرض والهواء والناس. هناك ابتسموا له ورفقوا به، وقالوا: لقد بررت بقومك يا شيبة، وأنبطتَ لهم هذا الماء يستقون منه، إذا ضنَّت عليهم الينابيع، فوصَلتْكَ رحم! لتعرفنَّ لك قريش هذه اليد. قال: ما أنتم وذاك! هذه بئرى لقد حفرتها، وكشفت طيبها بأمر هبط إليَّ من السماء. وهذا شرب ساقه الله إلى سأسقيكم منه إن أردت، ولكنى أسقى الحجيج منه قبل أن أسقيكم فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم. قالوا: يا بن هاشم! إنك لتسرف على نفسك وتشط على قومك، وتختلق على السماء! إن هذه الأرض ليست لك، وإنما هى لله ثم لقريش، وإن كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش، وإنا لم نشهد أمر السماء حين تَنزَّل إليك. ومتى تنزَّل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهان! فأين الكاهن الذى أمرك أن تحتفر؟! قال: يا قوم! خلوا بينى وبين الماء، فوالله لن تبلغوا منى شيئًا. إنكم تكثروننى بعددكم وعديدكم، ولكن الذى أمرنى باستنباط هذا الماء حرى أو يردَّ عنى كيدكم ويحمينى من ظلمكم. إنكم تستضعفوننى حين ترون أنى أبو واحد، ولكن الذى سخرنى لهذا الأمر خليق أن يمنحنى من الولد مَن أكاثركم به. وإنى أقسم لئن منحنى من الولد عشرةً ذكورًا أراهم بين يدى لأضحين له بواحد! وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتعصبوا له وقاموا من دونه يردُّون عنه عدوان قريش. وكاد الشرُ يقع بين القوم، ولكن عبد المطلب قال. يا قوم فيمَ قَطعُ الأرحام، وخَفرُ الذَّمام، وإراقةُ الدماء! إنى والله ما أؤثر نفسى من دونكم بشىء. فإن أبيتم أن تؤمنوا لى فهلمَّ إلى حَكَمٍ فليقض بيننا. قال الملأ من قريش: لقد أنصفكم ابنُ أخيكم من نفسه، فليكف بعضكم عن بعض، ولنحتكم إلى كاهنة بنى سعد هُذَيم، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم.

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام؛ فأجمع القوم أن يصحبها رُسلهم إلى الكاهنة فى مُعان. فلما فَصلت العيرُ صحبها عبد المطلب فى عشرين من بنى عبد مناف، وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة، ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر، ونَفِدَ ما كان معهم من ماء، واشتد بهم الظمأ وأحرق أكبادهم الصدَّى، وغدَوا ذات يوم ى فلاة مبسوطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدى إلى أمد، ليس فيها عين ولا بئر، ولا شجرة ولا عشب، وإنما هى أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الأقدام. وقد يئس القوم من كل رَوْح، وقنطوا من كل وجهة، فاجتمعوا يتشاورون. قال قائل منهم: يا قوم؛ إنما هو الموت فأنتم بين اثنين: إما أن تموتوا ضيعةً وتصبح أجسامكم نهَبًا لسباع الأرض والجو، لا

تواريكم يَدٌ فى التراب، ولا تأوى نفوسكم إلى جَدَث تطمئن فيه؛ وإما أن يقوم بعضكم على بعض، ويُوارى بعضكم بعضًا، فيكون لكل منكم حُفرته، وتعرف نفوسكم إذا هامت فى الفضاء الواسع، وألَمَّت بأهلها فى بطاح مكة وظواهرها، كيف تهتدى إلى أجسادها فتلم بها وتسكن إليها. والرأى أن يحتفر كل منكم حفرته، وأن تُقيموا، فأيكم ذهب الصدى بنفسه وأراه أصحابه وبكوا عليه، فلا يذهب منكم ضيعةً إلا رجل واحد تمتد به الحياة إلى أقصى أجل.

قال ذلك قائلهم ونهض لأخذ يحفر حفرته؛ وتثاقل القوم بعض الشىء، يفكرون فى أولادهم وآخرتهم، ويذكرون مكة ومَن تركوا فيها من أهل وولد ومال، ويذكرون الشام وينظرون إلى ما كانوا يحملون إليها من تجارة، ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح. وتَقَدَّمَ رُسل قريش إلى الكاهنة يتلاومون فى البئر وفى خصومتهم لصاحب الحق. ثم ينهضون والموتُ يُثقل نفوسهم، فيعمد كلٌ منهم إلى سنان يخط به حفرته فى الأرض.

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يومئ، ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض: "يا معشر قريش، ما أعجزكم! ها أنتم أولاء تُلقون بأيديكم وتنتظرون الموت، وتقطعون ما بينكم وبين أهلككم وولدكم من أسباب الحياة، وغن فيكم لبقية من قوة، وإن فى أبيكم لقدرة على الحركة وفلاً من النشاط إلا والله ما أنا بمُسلم نفسى للموت حتى يُكرهنى عليها. هلم فاضربوا فى هذه الأرض! فلعل الله أن يجد كلم من هذا الضيق فرجًا".

ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث، وإذا الآمال تحيا، وإذا النشاط يتجدد، وإذا القوم ينهضون إلى رواحلهم، وإذا هم يؤثرون أن يتخطَّفهم الموت على أن يسعوا هم إليه. وينهض عبد المطلب إلى راحلته، حتى إذا جلس عليها وزجرها نهضت وهمت لتندفع. ولكن ماذا! ماذا يسمع القوم؟ ماذا يرون؟ هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مُكبرًا وهم يلتفتون، فإذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خُف الراحلة، وإذا هى تفور، وإذا الماء ينبسط من حولها فيقع غُلة الأرض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظَّماء!

هلم يا معشر قريش إلى الماء الرواء! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد هلمّ فاشربوا واسقوا إبلكم واملئوا مَزادكم. هلم فانعموا بهذا الماء الصافى النقى البارد فى هذه الفلاة القائمة المحرقة. والقوم يضجون بالرضا والغبطة. وإن للإبل من حولهم لأطيطًا ملؤه الرضا والغبطة أيضًا. ومن ذا الذى زعم أن نفوس الناس وحدها هى التى تجد اللذة والألم، وتشعر بالسرور والحزن! روى الناس، ورُويت الإبل، ورُويت الأرض. وقالت رُسلُ قريش لعبد المطلب: عُد بنا يا شيبةُ إلى مكة فقد قُضى علينا، وإن الذى أسقاك فى هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك، هو الذى أسقاك فى مكة وساق إليك ما تُروى به الحجيج.

وأقبل البشير على سمراء ينبئها بأن زوجها قد عاد إليها سالمًا موفورًا مُظفَّرًا! فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المخزون: "حبذا شيبةُ مسافرًا! وحبذا شيبةُ مُقيما! ولكن شيبةَ لن يخلص لى منذ اليوم؛ إنه ليريد كثرة الولد! وأى نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه!؟".

ثم أشرقت شمس الغد على عبد المطلب وهو يسعى إلى عمرو بن عائذ المخزومى ليخطب إليه فاطمة، وهى أمُ جماعة من ولده بينهم عبد الله.